الأعمال المهمة للنخبة والخواص

المكان: طهران

الزمان: 2009/07/27م 1388/5/5ش 1430/8/4ق

الحضور: حماية الإمام الخامنئي وأعضاء مكتبه

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً أبارك هذه الأعياد الكبرى المتتابعة التي يعد كل واحد منها بحق شمساً مشرقة ونوراً باهراً على قلوب الشيعة، ميلاد الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) وميلاد الإمام السجاد (عليه السلام) وولادة سيدنا أبي الفضل العباس (عليه السلام). بوركت عليكم جميعاً هذه الأعياد إن شاء الله. والبركة هي أولاً في أن تكون قلوبكم مسرورة إن شاء الله، وأرواحكم متمتعة بالاستقرار والسكينة الإلهية، وكل كيانكم زاخراً بالثقة بالله والتوكل عليه تعالى. إذا كانت هذه الأحوال كان العيد مباركاً عليكم بركة تامة. لنحاول أن نحقق لأنفسنا هذه الأحوال. لنجعل قلوبنا مبتهجة وأرواحنا حافلة بالسكينة الإلهية، وكياننا طافحاً بالثقة بالله أكثر فأكثر.

إننا نثق بكلمة دارجة عادية من شخص لم نر منه سوءاً. إذا أردنا منه قرضاً، أو كانت لدينا عنده حاجة، ووعدنا بأن ينجز لنا هذه الحاجة، عادة ما نثق به ونتحرك لنهيّئ مقدمات المسألة، والحال أنه ليس أكثر من إنسان، وقد يتندم أو قد يأتي من يغير رأيه علينا، أو قد ينسى، أو قد يفقد الإمكانية التي أراد بواسطتها إنجاز الحاجة لنا. هناك عشرة احتمالات أو عشرات الاحتمالات التي قد تفسد وعده هذا، ومع ذلك نثق به. حسناً، كم وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر والهداية والتعليم: «واتقوا الله ويعلمكم الله» (1). وعد بالحفظ والصيانة ووعد بالمساعدة في أمور الدنيا. كل هذه الوعود وعدنا الله تعالى إياها. طبعاً هذه الوعود ليست مطلقة. بل لها شروطها وشروطها ليست صعبة جداً، إنما بوسعنا توفيرها. والدليل على ذلك إننا متى ما عملنا بهذه الشروط ساعدنا الله تعالى. ومثال ذلك الحرب المفروضة. أنتم الشباب الذين لم تدركوا عهد الحرب المفروضة اعلموا أنه يوم بدأت الحرب المفروضة قال جميع المختصين والمحللين والنخبة على نحو القطع إن صداماً هو المنتصر في هذه الحرب وإيران سوف تهزم. باستثناء عدد قليل من أصحاب النظرة الإسلامية والإيمانية – نظرة الإمام للأحداث – كان في قلوبهم أمل يزيد أو ينقص. البعض كان في قلوبهم بصيص من أمل والبعض كانت قلوبهم مشعة بالأمل.

لقد رويت هذه الخاطرة مراراً: في اليوم الثالث أو الرابع للحرب كنا مجتمعين كلنا في غرفة هيئة أركان الحرب، وكنت موجوداً أيضاً وكان مسؤولو البلاد ورئيس الجمهورية ورئيس الوزراء – رئيس الجمهورية في حينها كان بني صدر، ورئيس الوزراء المرحوم رجائي – وعدد من نواب المجلس وسواهم كنا مجتمعين كلنا هناك نناقش الأمور ونتشاور. وكانت هناك الشخصيات العسكرية. جاء أحد العسكريين إلي جانبي وقال: الأصدقاء في الغرفة الأخرى لديهم شأن خاص معك. فنهضت وذهبت إليهم. كان هناك المرحوم فكوري والمرحوم فلاحي – هؤلاء الذين أتذكرهم – وشخصان أو ثلاثة آخرون. جلسنا وقلت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: أنظر يا سيدي – وأخرجوا ورقة لا أزال أحتفظ بها لحد الآن بين أوراق مذكراتي وفيها خط أولئك الإخوة الأعزاء – هذه طائراتنا، مثلاً أف 5، وأف 4، وسي 130، وكذا وكذا من أنواع طائرات النقل والقتال. كتبوا سبعة أو ثمانية أنواع. وكتبوا: من هذا النوع من الطائرات لدينا مثلاً عشر طائرات جاهزة للعمل وستكون جاهزة إلى اليوم الفلاني. وفيها قطع غيار تحتاج إلى تبديل سريع – في الطائرات قطع غيار تتبدل مع كل

رحلة جوية أو كل رحلتين – وكانوا يقولون إننا لا نمتلك هذه القطع. لذلك سينتهي مفعول هذا النوع من الطائرات بعد خمسة أو عشرة أيام وتعود كأنها غير موجودة وكأننا لا نمتلكها. وبعد إثني عشر يوماً سينتهي ذلك النوع من الطائرات. وبعد أربعة عشر يوماً ينتهي النوع الفلاني من الطائرات. ومعظمها كان من نوع سي 130 الموجودة لحد الآن والتي قالوا عنها إنها ستعمل حوالي ثلاثين أو واحد وثلاثين يوماً. أي إن الجمهورية الإسلامية لن يكون لديها بعد واحد وثلاثين يوماً أية طائرة عسكرية سواء طائرة عسكرية مقاتلة أو طائرة إسناد ونقل عسكري. سينتهي كل شيء. قالوا: لاحظ هذا هو وضعنا الحربي، فاذهب وانقل هذا للإمام. ولا أخفي عليكم أنني شعرت بالخوف قليلاً وقلت: عجيب ماذا نفعل إن لم تكن لدينا طائرات؟ إنهم يأتون إلينا دائماً بالطائرات الروسية. طياروهم لم تكن لديهم شجاعة ومهارة طيارينا، لكن حجم العمل كبير. كانوا يأتون باستمرار وكانت لديهم أنواع الميج.

قلت لهم حسناً. أخذت الورقة وذهبت بها إلى الإمام في جماران. قلت له: سيدنا هؤلاء السادة هم قادة جيشنا وكل ما لدى العسكريين هو في أيديهم، وهذا ما يقولونه، يقولون إن طائراتنا الحربية تعمل إلى خمسة عشر أو ستة عشر يوماً على الأكثر، وآخر ما سيتبقى لنا من الطائرات هي طائرات سي 130 وطائرات النقل التي لن تعمل لأكثر من ثلاثين أو واحد وثلاثين يوماً. وبعد ذلك لن تكون لدينا طائرات على الإطلاق. نظر لي الإمام وقال – أروي هنا قوله بالمضمون ولا أتذكر عبارته حرفياً، ربما كتبت عباراته حرفياً في مكان ما – قال: ما هذا الكلام؟ قل لهم ليحاربوا، والله سوف يمدّهم ويصلح الأمور، لن تحدث مشكلة.

لم يكن كلام الإمام مقنعاً بالنسبة لي من الناحية المنطقية. فالإمام ليس متخصصاً في الطائرات. لكنني كنت مؤمناً بأحقية الإمام ونور قلبه وحماية الله له، وأدري أن الله تعالى أراد هذا الرجل العظيم لأمر عظيم وسوف لن يتركه. كنت مؤمناً بهذا. لذلك اطمأن قلبي وعدت للسادة – في نفس اليوم أو في اليوم التالي لا أتذكر – وقلت لهم إن الإمام يقول صلّحوا هذا الموجود ما استطعتم وأعدّوه وبادروا للعمل.

نفس تلك الطائرات من طراز أف 5، وأف 4، وأف 14، وتلك التي كان المتوقع أن تعطل تماماً بعد خمسة أو ستة أيام لا تزال تعمل لحد الآن في قوتنا الجوية. مضت تسع وعشرون سنة على عام 59 ولا تزال تلك الطائرات تعمل. طبعاً تضررت بعضها في الحرب أو سقطت أو أصيبت، وخرجت بعضها عن حيز الاستعمال. ولكن كان مقابل هذا التساقط نماء وتجددّ فقد استطاع مهندسونا في الأجهزة المختصة صناعة قطع الغيار اللازمة وملأ الفراغات واستيراد بعض القطع بطرق معينة على الرغم من الحظر المفروض وعلى رغم أنوف الذين فرضوه، وإبقاء الطائرات تعمل. أضف إلى ذلك أنهم تعلموا منها واستطاعوا صناعة نوعين من الطائرات الحربية. وتعلمون الآن أنه يوجد في قوتنا الجوية نوعان من الطائرات الحربية – هي طبعاً ليست عين طائراتنا السابقة لكن المهندسين استفادوا من تلك علي كل حال. فالمهندس بطبيعة الحال ينظر للأعمال ويكتسب التجارب ويصمم بنفسه – طائرات بغرفتين للتعليم وطائرة بغرفة واحدة مقاتلة. مضافاً إلي أننا لا نزال نمتلك تلك التي كانت لدينا.

هذا هو التوكل على الله. وهذا هو صدق الوعد الإلهي. حينما يقول الله تعالي بتأكيد مكرر ومتعدد الجوانب: «ولينصرن الله من ينصره»(2) فإن الله تعالى سينصر ويعين بلا شك وبلا ترديد وبشكل حتمي ويقيني الذين يعينون دينه. حينما يقول الله هذا وأنا وأنتم نعلم أننا ننصر دين الله إذن لنطمئن أن الله سوف يمنّ بنصره.

وقد شاهدنا النصر الإلهي والعون الإلهي بعد الحرب أيضاً عشرات المرات.. وإذا حسبنا الحالات التفصيلية الصغيرة ربما كان العدد أكثر من هذا بكثير ولأمكن القول آلاف المرات، ولكن يمكن حساب الحالات الكبيرة فقط. ومن هذه الحالات عودة أسرى الحرب. كان لنا عند العراق نحو خمسين ألف أسير.. خمسين ألفاً.

والعراق أيضاً كان لديه أقل من هذا العدد بقليل من الأسرى عندنا. لكن الفرق هو أن أسرى العراق عندنا كانوا كلهم عسكريين أما الأسرى الذين كانوا لنا عند العراق فالكثير منهم غير عسكريين. أخذوا الناس من البوادي وأسروهم. حينما انتهت الحرب بدى لي أن استعادة هؤلاء الأسرى من صدام قد يطول ثلاثين عاماً.. ثلاثين عاماً. لأننا على علم بتبادل الأسري في الحروب المعروفة. في الحرب العالمية، وفي حرب اليابان، بعد مرور ثلاثين سنة لا يزال أحد الأطراف يدعي أن لدينا عند الطرف الآخر عدد من الأسرى، ويقول الطرف الآخر ليس لدينا مثل هؤلاء الأسرى. وتستمر المفاوضات والمساومات والاجتماعات إلى أن يصلوا إلى نتيجة. يجب عقد مئات المؤتمرات والاجتماعات لنثبت أنه لا يزال هناك هذا العدد من الأسرى. وبشكل بطيء جداً. هكذا كان صدام بالتالي. إنسان سيئ المراس وسيئ الأخلاق وخبيث ومؤذٍ وكلما شعر بالقوة فسوف يستعرض هذه القوة بالتأكيد. هكذا صنف من البشر كان. طبيعة صدام كانت طبيعة جد دنيئة ومنحطة. الأشخاص المنحطون الدنيؤون متى ما شعروا بالاقتدار ينتفخون إلى درجة أنه لا يمكن إقامة أي تعامل أو تبادل معهم، أبداً، وحينما يشعرون بالضعف ويقفون أمام طرف أقوى منهم يتذللون أكثر من النملة. لاحظتم كيف راح صدام يتوسل بالأمريكان. قبل أن يهجم الأمريكان علي العراق – في هذه المرة الأخيرة – كان يتوسل أن تعالوا لنتفاهم ونتصالح ونتحد كلنا ضد الجمهورية الإسلامية. إلا أن حظه كان عاثراً ولم يعد الأمريكان يرغبون فيه.

كنت أقول إن إطلاق سراح الأسرى سيطول ثلاثين سنة. لكن الله تعالى مهّد الأمور، وحصل هجوم ذلك الأحمق علي الكويت، وإذا أراد أن يحارب الكويت – طبعاً حربه مع الكويت كانت بهدف احتلال الكويت بالكامل – فلا بد أن يطمئن باله من جانب إيران، وهذا غير ممكن مع وجود الأسرى. في البداية كتب رسالة إلى رئيس الجمهورية في حينها، ولي بنحو من الأنحاء، ولأنه لم يتلقّ جواباً وافياً من هذا الجانب، بدأ هو بإطلاق الأسرى والذين يتذكرون يتذكرون. فجأة سمعنا أن الأسرى يتوافدون على الحدود جماعات جماعات إلى أن انتهى الأمر. كان هذا من فعل الله ومن نصره. وهكذا القضايا الأخرى من هذا القبيل وإلى اليوم.

أنتم إخوة وأخوات أعزاء سواء الذين يخدمون في الحماية أو في المنظومة الإدارية هنا، أو عوائلهم وزوجاتهم وأبناؤهم.. أنتم تخدمون حقاً في موضع حساس. إذا أردت أن أوصيكم توصية فهي أن تزيدوا من بصيرتكم.. البصيرة. البلايا التي تنزل بالشعوب إنما هي في العديد من الحالات بسبب انعدام البصيرة. الأخطاء التي يرتكبها البعض – ترون في مجتمعنا أن بعض العامة أحياناً، والنخبة في كثير من الأحيان، يقعون في أخطاء. المتوقع من النخبة أن تكون أخطاؤهم قليلة وأحياناً إذا لم تكن أخطاؤهم أكثر كمّاً فهي أكثر كيفاً من أخطاء عامة الناس – هي نتيجة انعدام البصيرة. الكثير منها ولا أقول كلها.

ارفعوا مستوى بصيرتكم ومستوى وعيكم. كثيراً ما ذكرت عبارة الإمام أمير المؤمنين التي أظن أنه قالها في حرب صفين: «ألا ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر» (3). تعلمون أن صعوبة راية أمير المؤمنين أكبر من راية الرسول من بعض النواحي. ففي راية الرسول كان العدو معلوماً والصديق معلوماً. أما تحت راية أمير المؤمنين فلم يكن العدو والصديق معلومين كما ينبغي. العدو يتكلم بنفس الكلام الذي يتكلم به الصديق. نفس صلاة الجماعة التي تقام في معسكر أمير المؤمنين تقام في المعسكر المقابل أيضاً.. في حرب الجمل وصفين والنهروان. فماذا كنتم ستفعلون لو كنتم هناك؟ يقولون لكم: الطرف الآخر على باطل. وتقولون: فما هذه الصلاة والعبادة إذن؟ البعض منهم كالخوارج كانت عبادتهم شديدة جداً. انتهز أمير المؤمنين ظلام الليل واجتاز بمعسكر الخوارج فرأي رجلاً يقرأ بصوت جميل: «أمّن هو قانت آناء الليل» (4) كان يتلو هذه الآية القرآنية في منتصف الليل بصوت جد دافئ ومؤثر. وكان إلي جانب أمير المؤمنين أحد

أصحابه فقال له: يا أمير المؤمنين طوبي لهذا الذي يتلو الآية القرآنية بهذا الصوت الحسن. ليتني كنت شعرة في جسده، لأنه سيدخل الجنة، ولا شك أنني سأدخل الجنة معه وببركته. مضت هذه وبدأت معركة النهروان. وبعد أن هزم الأعداء وقتلوا جاء أمير المؤمنين عند أجساد قتلى العدو فكان يجتاز بها ويأمر بأن يقلبوا بعض الجثث الملقاة على وجوهها فكانوا يقلبونها وكان الإمام يتكلم معهم. كانوا ميّتين لكنه أراد لأصحابه أن يسمعوا. أمر بأن يقلب أحدهم فقلب وقال الإمام لصاحبه الذي كان معه تلك الليلة: هل تعرف هذا؟ قال صاحبه: لا. فقال الإمام: هذا هو من تمنّيت أن تكون شعرة في جسده وكان في تلك الليلة يتلو القرآن بتلك النبرة الحزينة المؤثرة، وهنا يقف مقابل القرآن الناطق أمير المؤمنين (عليه أفضل صلوات المصلين) ويشهر السيف في وجهه. لأن البصيرة معدومة.. البصيرة معدومة، لذلك لا يستطيع أن يفهم الأوضاع.

كثيراً ما شبّهتُ هذه الجبهات السياسية والمسارح السياسية بجبهات الحرب. في الحرب النظامية إذا لم تتوفر لديكم هندسة الأرض فمن المحتمل وقوع أخطاء كبرى. ولذلك تذهبون للاستطلاع. من الأعمال المهمة في العمل العسكري هو الاستطلاع. الاستطلاع عن قرب حيث يذهبون وينظرون طبيعة الأرض، وأين هو العدو، وما هو وضعه، وأين هو مواضعه، وما هي موانعه وسواتره ليفهموا ما الذي ينبغي عليهم فعله. إذا لم يقم الطرف بهذا الاستطلاع ولم يعرف الميدان وأضاع العدو فقد يجد فجأة أنه يلقي قذائفه ومدفعيته باتجاه يتموضع فيه أصدقاؤه وليس أعداؤه. لأنه لا يعلم الواقع. وكذا الحال بالنسبة للساحة السياسية تماماً. إذا لم تتوفر لديكم البصيرة ولم تعرفوا العدو قد ترون فجأة أن نيران مدفعية إعلامكم وحواراتكم وممارساتكم متجهة نحو من هم أصدقاؤكم وليس أعداؤكم. على الإنسان معرفة العدو فلا يخطئ في تشخيص العدو. إذن البصيرة ضرورية والتبيين ضروري.

التبيين من الأعمال المهمة للنخبة والخواص. ليوضحوا الحقائق من دون عصبيات ومن دون أن تسيطر الانتماءات الفئوية على قلب القائل. هذه الأحوال مضرة. ينبغي ترك الانتماءات والتيارات جانباً وإدراك الحقيقة كما هي. في حرب صفين كان من الممارسات المهمة لسيدنا عمار بن ياسر تبيين الحقيقة. لأن التيار المقابل وهو تيار معاوية كان له صنوف الإعلام والدعاية. وهو ما يسمونه اليوم الحرب النفسية. هذه ليست من الاختراعات الجديدة إنما اختلفت الأساليب، وقد كانت منذ البداية. وقد كانوا ماهرين جداً في هذه الحرب النفسية. ينظر الإنسان في أعمالهم فيرى أنهم كانوا ماهرين في الحرب النفسية. وتخريب الأذهان أسهل من بنائها. حينما يقال لكم شيء ويعتريكم سوء الظن بشيء معين فإن ولوج سوء الظن إلى الذهن سهل ومحوه من الذهن صعب. لذلك كانوا يبثون الشبهات وينشرون سوء الظن وكان عملهم سهلاً. والشخص الذي وجد في هذا الطرف أن من واجبه الوقوف بوجه هذه الحرب النفسية ومقاومتها هو سيدنا عمار بن ياسر الذي ورد في أحداث حرب صفين أنه كان يتنقل علي الفرس هنا وهناك في أطراف المعسكر وصفوف الجنود ويتحدث للمجاميع – الكتائب أو الألوية حسب التعبير الدارج اليوم – بمقدار معين. كان يوضح لهم الحقائق ويؤثر فيهم. في موضع ما كان يرى نشوب خلاف وأن البعض اعتراهم الشك وحصل بينهم نقاش وجدل فكان يوصل نفسه إليهم بسرعة ويتحدث لهم ويبين ويفتح هذه العقد.

إذن البصيرة مهمة. ودور النخبة والخواص هو أن يوجدوا هذه البصيرة لا في أنفسهم فحسب بل لدى الآخرين أيضاً. ويرى الإنسان أحياناً للأسف أن بعض النخبة مبتلون هم أنفسهم بانعدام البصيرة فلا يكادون يفهمون أو يلتفتون. يطلقون فجأة كلاماً لصالح العدو، لصالح الجبهة التي تكرس كل همّها للقضاء على الجمهورية الإسلامية. هناك النخبة والخواص وهم ليسوا أفراداً سيئين وليست نواياهم سيئة لكنهم هكذا على كل حال.. إنه انعدام البصيرة. أنتم الشباب خصوصاً عالجوا انعدام البصيرة هذا بقراءة الأعمال الجيدة بتأمل،

وبالحوار مع الأشخاص الموثوقين الناضجين وليس بالحوارات التقليدية – حيث تقبلون كل ما قاله، لا، ليس هذا ما أريده – هناك أشخاص بوسعهم إقناع الآخرين بالأدلة وتنوير أذهانهم وإقناعهم. حتى الإمام الحسين (عليه السلام) استخدم هذه الوسائل في بداية نهضته وعلى امتدادها. ولأن الأيام أيام الإمام الحسين (عليه السلام) أقول هذه الكلمة:

ينبغي أن لا نعرف الإمام الحسين من خلال معركة يوم عاشوراء فقط. ذلك جانب من جهاد الإمام الحسين. ينبغي معرفته من خلال تبييناته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وإيضاحه للقضايا والأمور في منى وعرفات وخطابه للعلماء وللنخبة – للإمام الحسين كلمات عجيبة ومهمة مسجلة في الكتب – ثم في الطريق إلى كربلاء وفي ساحة كربلاء نفسها. في ساحة كربلاء نفسها كان عليه السلام صاحب تبيين وتنوير فكان يذهب ويتحدث. مع أنها ساحة حرب والمتوقع إراقة الدماء لكنه عليه السلام كان ينتهز أية فرصة للتحدث مع الطرف المقابل عسى أن يستطيع إيقاظهم. البعض من النيام استيقظوا طبعاً، والبعض كانوا يتظاهرون بالنوم ولم يستيقظوا حتى النهاية. الذين يتظاهرون بالنوم من الصعب إيقاظهم، وأحياناً من المستحيل إيقاظهم.

بوركت عليكم جميعاً هذه الأعياد السعيدة إن شاء الله، ووفقكم الله تعالى جميعاً، نساءكم ورجالكم، شيبكم وشبانكم لقلوب مبتهجة وأرواح متفائلة وكيان ملؤه السكينة والاستقرار والثقة والحركة نحو الهدف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش:

1) سورة البقرة، الآية 282.

2) سورة الحج، الآية 40.

3) نهج البلاغة، الخطبة 173.

4) سورة الزمر، الآية 9